المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية – جامعـة سيدي بلـعباس
ISNN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X
المجلـد 13 -- العدد 02 -- ديسمبر 2021 ص 114 - 139

تهويد فلسطين، من الأسطورة إلى التجسيد. عوامل التحوّل وآلياته (1860-1948)

Judaization of Palestine, from Myth to Execution. Factors and Mechanism of Transformation (1860-1948)

د. بلعزوز العربي Dr. Belazzouz Larbi l.belazzouz@univ-chlef.dz	تاريخ حديث ومعاصر	جامعة الشلف - الجزائر

DOI :

الإرسال: 2021/05/01 **القبول**: 2021/11/28 **النشر**: 2021/12/27

ملخص

كثيرة هي الدراسات التي اهتمت بموضوع القضية الفلسطينية عبر تتبّع أحداثها من جذورها الأولى إلى غاية التحوّل العارم الذي طرأ عليها بعد الاعلان عن إنشاء دولة إسرائيل سنة 1948م. وكثيرة أيضا هي الدراسات التي تناولت ذات القضية خلال الفترات التي تلت ذلك الحدث إلى غاية اليوم، لكن، لا يمكن فهم هذه المرحلة ولا تلك فهما صحيحا من دون الإلمام ببعض الحيثيات ذات الصّلة بالأطراف والآليات والمناورات التي ساهمت في تجسيد ذلك التحوّل الراديكالي الذي طرأ على جزء حيوي من الأمّة العربية سنة 1948م، لأن تلك المعطيات هي سبيل كل فهم واستيعاب؛ فبدونها لا يمكن ادراك الحاضر ادراكا صحيحا، ولا قراءة المستقبل قراءة سليمة وصائبة.

من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لإظهار بعض تلك الآليات والخلفيات والأطراف الفاعلة، التي بتظافرها زُرع جسم غريب داخل الأمة العربية، وفي ذات الوقت طمس جسم آخر أصيل في ذات الجغرافية، وذلك عبر الارتكاز على كتابات زعماء الصهيونية الأوائل، وكذا أهم الصحف اليهودية المدافعة عن الفكر الصهيوني والمروّجة له في فرنسا بالخصوص، الصّادرة خلال ذات الفترة التي صيغت فيها الآليات وبرمجت فيها أهم تلك التحوّلات.

وبحكم الضرورة العلمية فقد زاوجت بين المنهجين "الاسترجاعي" القائم على التوثيق بهدف إعادة البناء التصوّري للماضي وبين المنهج "التحليلي" القائم على فحص وتحليل المادة التاريخية المُسترجعة.

كلمات مفتاحية: فلسطين؛ الصهيونية؛ تيودور هرتزل؛ وعد بلفور؛ بريطانيا.

Abstract

Many studies have dealt the Palestinian question by tracing its events from its roots to the major transformations, which occurred after the announcement of the creation of the State of Israel in 1948. There are also many studies, which have dealt the Palestinian question, in the periods following this event, up to the present day. However, there are few who have touched on the mechanisms and maneuvers

and the different parties that have contributed to achieving this radical transformation in Palestine.

The aim of this study is to show some of these mechanisms, drawing on foreign sources ; including the writings of the first Zionist leaders, as well as on the most important Jewish newspapers, defending and promoting Zionist thought in France in particular, published at the same period.

Keywords : Palestine ; Zionism ; Theodor Herzl ; the Balfour Declaration ; Britain.

مقدمة

يعتبر اليهود بأنّ فلسطين هي أرض مملكتهم الغابرة، وأنّها الوطن الذي وعدتهم به السّماء حسب العهد القديم؛ ولذلك كانوا عبر العصور يتحيّنون الفرص لتجسيد تلك القناعة الرّاسخة لديهم، إلا أن المعطيات التاريخية، رغم جهودهم، أبت أن توفّر لهم المناخ السانح لتجسيد تلك الغاية. أمام هذا الواقع التّاريخي الغير المتحكّم فيه، تنبّه اليهود إلى أن عجلة التاريخ تلك يمكن توجيهها في الاتجاه المرغوب بمناورات وآليات شتّى منتهزين، بلا شك، فترة الضّعف والفراغ السياسي الذي كانت تمرّ به البلاد العربية منذ بداية القرن 19م مع تهاوي قوّة ونفوذ الدولة العثمانية؛ حيث راحوا يُعدّون كل الشروط لتلك الآليات عبر تجميع الإمكانيات والكفاءات ومختلف المقدّرات لتحقيق مأربهم، وتمكّنوا من الكثير منها خلال النصف الثاني من القرن 19م. ويمكن اعتبار تأسيس (منظّمة التحالف اليهودي العالمي) سنة 1860 بداية لهذه الآليات الرّامية إلى تحقيق ذلك الهدف، وهو ما يعني أن جذور الفكر الصهيوني ترجع إلى ما قبل كتاب تيودور هرتزل الذي صدر سنة 1896 وأيضا قبل مؤتمر (بال) الشهير الذي تمّ في السنة الموالية لصدور ذلك الكتاب.

تسعى هذه الدراسة، انطلاقا من مصادر أجنبية وصهيونية، إلى تجلية بعض الحقائق التاريخية، من خلال الإجابة على الإشكالية التالية: كيف تمكّن اليهود عبر العالم من الانتقال من حالة الشتات إلى تشكيل دولة وطنية لهم على أرض فلسطين؟ وفيما تمثّلت آليات ذلك الانتقال ومن هم أطرافه؟

وكما أسلفت، فقد اقتضت الضرورة العلمية في هذه الدّراسة المزاوجة بين المنهجين "الاسترجاعي" القائم على التوثيق بهدف إعادة البناء التصوّري للماضي وبين المنهج "التحليلي القائم على فحص وتحليل المادة المُسترجعة.

1 . أصول الفكر الصهيوني:

لم يكن موضوع الرجوع إلى فلسطين بالنسبة لليهود قبل القرن 19م سوى مجرّد أسطورة وحلم بعيد المنال، بدليل أنهم كانوا يكتفون بتشييد معالم تجسّد تلك المرجعية الدينية في الدول التي كانوا يقيمون بها، أما فكرة مملكة داوود وأرض الميعاد فلم يكن يؤمن بها الاّ قلّة قليلة منهم عبر التاريخ. ويقول (ماكس نوردو)، بأن الفيلسوف (مندلسون) (Moise Mendelssohn) هو من حرّر تفكير اليهود عبر كتاباته خلال منتصف القرن 18م، الأمر الذي سمح بتطوّر فكرة فلسطين اليهودية شيئا فشيئا لتبلغ ذروتها خلال النصف الثاني من القرن 19م(Nordau, Ecrits Sionistes, 1936) .

مع نهاية القرن 19 نادى (تيودور هرتزل) بقابلية تجسيد تلك الأسطورة اليهودية، حيث سعى للانتقال بها من المجال المقدّس والخيالي فحسب عبر جعلها قضية دولة وشعب. وفعلا آمن بذلك اليهود والمجتمع الدولي الفاعل وقتئذ أيضا (Nordau, Ecrits Sionistes, 1936) . ويعتبر كتاب (هرتزل) "الدّولة اليهودية" الصّادر سنة 1896م نقطة البداية الحقيقية لما عرف بالصهيونية السّياسية، وذلك رغم الانتقادات الكثيرة التي وجهت له؛ ومن ذلك كونه غير موضوعي وأفكاره معزولة... ولكن رغم ذلك سرعان ما تفاعل معه الشباب اليهودي عبر العالم(Nordau, Ecrits Sionistes, 1936) .

مهما يكن من أمر، فقد ساعدت مجموعة من العوامل على تجسيد طروحات ورؤى وأفكار (هرتزل)؛ فتداعيات وأصداء المضايقات التي كان اليهود عرضة لها في روسيا بالخصوص، بسبب اتهامهم بقتل القيصر (ألكسندر الثاني) سنة 1881م فرصة لا يجب تضييعها، وكذلكم الأمر بالنسبة لقضية الضابط دريفوس (Dreyfus) في فرنسا سنة 1894 المشهورة وما نتج عنها من عداء كبير لليهود، هذا علاوة على التحوّلات الفكرية والوطنية التي كانت أوربا بالخصوص مصرحا لها، والتي تركت هي أيضا بصماتها في المسألة الصهيونية وعلاقتها بفلسطين. ومن العوامل الخارجية المساعدة الأخرى نذكر:

- طغيان الشعور الوطني على الفكر الأوربي وتحديده للسياسة الدولية خلال القرن 19م بالخصوص، الأمر الذي ولّد لدى اليهود الشّعور والوعي بالذّات، وبالتالي الرّغبة في الحرية عبر الوطنية التي لا يمكنها أن تتحقّق بدون وطن.
- تزايد عدد المثقفين وسط الشعب اليهودي عبر العالم، انطلاقا من ادراكهم بأن قضية العودة (تأسيس وطن) لا يمكن أن يحقّقه إلاّ الأقوياء(Nordau, Ecrits Sionistes, 1936) .

وباجتماع هذه العوامل وغيرها، تولّدت لدى بعض اليهود القناعة بأن اليهودية بدون صهيونية، أي بدون الرغبة والأمل في وحدة جديدة للشعب اليهودي، ليس لها مستقبل، بل أن المطاف سينتهي بها إلى اتخاذ مسار مختلف سيضفي بها إلى السّقوط في أحضان المسيحية. ولذلك لا يجب على اليهود الاكتفاء بالبقاء كمقلّدين للأعراق الأخرى بل عليهم أن يتحوّلوا إلى جنس أصيل له سبب وغاية من الوجود، وتجعل منه بالمرّة شعبا عاديا يعيش على أرض ووطن(Nordau, Ecrits Sionistes, 1936) ، وهو ما يعني أن (هرتزل) تمكّن من تكوين نواة من المؤمنين بفكرة الدولة اليهودية بفلسطين، التي نادى بها المؤتمر الصهيوني الأول بمدينة (بال 1897) الذي أقرّ بضرورة تحقيق فكرة الوطن القومي اليهودي، وحدّد وسائل وآليات تجسيد ذلك الهدف عبر الخطوات التالية:

- تشجيع استقرار المزارعين والحرفيين والصناع اليهود بفلسطين وبشكل ناجع؛
- تنظيم اليهود في مؤسسات محلية واتحادات عامة وفق ما تسمح به القوانين المعمول بها في الدول التي تنشط فيها تلك المنظمات؛
- توطيد الشعور بالكرامة الشخصية والوعي الوطني لدى الشعب اليهودي؛
- القيام بالإجراءات التحضيرية الضرورية من أجل الحصول على موافقة الحكومات على تجسيد الصهيونية على أرض الواقع(Nordau, Ecrits Sionistes, 1936) .

يتضح مما سبق بأنّ (هرتزل) هو من أخرج الصهيونية من مجال القداسة والأسطورة ومن مجرّد حلم باطني وطموح عاطفي إلى قضية دولة ذات صلة بالقانون الدولي.

بعد أن اتضحت الفكرة وتجلّت لليهود عبر العالم، ولاقت استحسانهم وإيمانهم بإمكانية تجسيدها يوما ما على أرض الواقع، راح زعماء الصهيونية يرسمون استراتيجياتهم القائمة على:

- تعمير فلسطين بأكبر عدد ممكن من اليهود والمؤسسات اليهودية المختلفة؛
- التأثير إعلاميا على مصدر القرار في أوروبا وأمريكا؛
- استغلال كل الفرص السياسية والدولية المتاحة لإظهار اليهود كطرف مقهور ينبغي دعمهم لإقامة وطن قومي لهم.

2. الدّعم اليهودي للمشروع الصهيوني:

2 .1. توفير أرضية المشروع:

ارتكزت استراتيجية الحركة الصهيونية على تسخير كل مقدّرات اليهود الفكرية والديبلوماسية والإعلامية والمادية والبشرية في سبيل تجسيد حلمهم الأسطوري العتيق؛ حيث بالإضافة إلى انتهاز كل المآسي التي كانوا ضحية لها هنا وهناك من العالم، عملوا على تسخير كل الصحافة اليهودية في العواصم الكبرى التي يصنع فيها القرار الدولي (بريطانيا، فرنسا، الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا وغيرها) للحديث عن الحق اليهودي التاريخي في فلسطين، حتى باتت النخبة السياسية في تلك الدّول وكذا الرأي العام بها مؤمنة بذلك الطرح اليهودي. كما عملوا أيضا، بعد أن سمحت لهم الظروف بذلك بعد تهاوي الدولة العثمانية، بالضغط عليها تارة ومساومتها تارة أخرى للتفاوض على بعض الصفقات التي تُمكّن اليهود من الهجرة إلى فلسطين، وإقامة بعض المشاريع الاقتصادية والمالية بها لصالحهم، وذلك كان شرط أساسي في ذلك المشروع الصهيوني المتكامل.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، وأصبحت تلك الدولة المهلهلة والضعيفة طرفا فيها (الدولة العثمانية)، أدرك الصهاينة بأن مرحلة تجسيد الحلم قد حانت وأنّ تضييعها غير مسموح؛ لذلك هرع أثرياء اليهود في بريطانيا بالخصوص إلى عرض خدماتهم على الحكومة البريطانية، كما سارعوا إلى نشر مآسيهم وآمالهم للإدارة الأمريكية منذ أن أظهرت نيتها في دخول تلك الحرب.

كيف يُفسّر إلحاح اليهود منذ وقت مبكّر على التفاوض من أجل السّماح لهم بالهجرة إلى فلسطين وإقامة بعض المشاريع بها؟

تضمنت الرسالة التي نشرتها المنظمة الصهيونية الأمريكية هيهولوتز (Heholoutz) في إحدى الجرائد بنيو يورك في أوت 1917 ما يلي: " لا يمكننا أن نطلب من المستوطنين تعمير كل البلاد، يجب القيام بهجرة شعبية كثيفة، ولكن كما أنه لا يمكن لجيش قويّ دخول بلد ما دون إرسال طلائع له، كذلكم الأمر بالنسبة للكتل الشعبية التي لا يمكنها القدوم إلى فلسطين إلاّ بعد أن تستقرّ بها الطلائع الوطنية(Heholoutz, 1917) ".

كما قال الأديب والشّاعر الصهيوني الفرنسي أندري سباير (André Spire)، في ذات السياق، وهو يخاطب مجموعة من الطلبة الصهاينة سنة 1918: " لم تكن أيّ حكومة من حكومات العالم لتُفكّر في اليهود لولا وجود 100.000 يهودي بفلسطين، وكذا المستوطنات

والمدارس ... لأنّ الحكومات لا تتعامل إلاّ مع الواقع...". ويتّضح من هذا وذاك أن ما حقّقته المنظمة الصهيونية في فلسطين إلى غاية نهاية الحر ب العالمية الأولى من مشاريع وانجازات في مقدّمتها رفع عدد اليهود بالمنطقة لم يأت صدفة، بل كان ثمرة جهود مبكّرة وكثيفة باشرتها أطراف يهودية في أرجاء شتّى من العالم، وكانت قاطرة هذا المسعى هي (الوكالة اليهودية) التي أسسها الصهاينة بفلسطين سنة 1908م.

شكّلت المؤسسات البنكية اليهودية التي تأسّست في فلسطين العمود الفقري في الاستراتيجية الصهيونية، وتأتي في مقدمتها الشركة الأنجلو فلسطينية (Anglo – Palestine Company) سنة 1903، التي ساهمت بفعالية في توفير السيولة المالية الضرورية لمشاريع المنظمة الصهيونية. يضاف إليها الصندوق الوطني اليهودي الذي باشر عمله بفلسطين بصفته مؤسسة بريطانية تحت اسم (Karen-Kayemeth Leisrael) والذي كانت مهمته الأساسية هي تخصيص فوائد أموال اليهود المودعة لشراء الأراضي بفلسطين. كما أسست بذات المقام سنة 1911 تعاونية مارهافيا (Merhavia) التي تكلّفت بتكوين الفلاحين اليهود، وتعهّدت بتوسيع المستوطنات جغرافيا وتوفير الأموال للإسكان، بالإضافة إلى توفير أراضي لبناء المدارس والمستشفيات(Felman, 1918) .

ويمكن تقييم نتائج الاستراتيجية الصهيونية عند بداية الحرب العالمية الأولى سنة 1914 من خلال رصد ما تحقّق على الأرض، حيث وصل عدد المستوطنات اليهودية إلى 45 تستحوذ على مساحة 40500 هكتار من الأراضي، أما عدد المستوطنين فكان في حدود 12000 شخص(I.N.S.E.E, 1948) .

2. 2 . مجهودات عائلة "روتشيلد" في دعم المشروع الصهيوني منذ القرن 19:

عند الحديث عن الدّعم اليهودي لغرس المزيد من اليهود والمؤسسات الصهيونية بفلسطين ودور الأثرياء اليهود في ذلك، تطفو إلى السّطح مساهمة عائلة (روتشيلد) البريطانية عبر رعايتها لمصالح اليهود في كل العالم بشكل عام، وفي فلسطين بشكل خاص سيما بعد تأسيس (التحالف اليهودي) سنة 1860م. وأشارت المصادر اليهودية إلى أن (ليونال ناتان دو روتشيلد) (L. N.de Rothscild) كان قد تبرّع منذ سنة 1868بمبلغ 10 آلاف فرنك لفائدة المكتبة اليهودية بالقدس، كما أوصى بتخصيص جزء من ورثه لها. كما أسّس (البارون (نتانايال دو روتشيلد) (Nathaniel de Rothscild) وآخرون لجنة في بريطانيا في شهر ماي من سنة 1880 لدعم المصالح اليهودية بفلسطين ماديا عبر شراء

الأراضي لإقامة مؤسسات تعليمية وغيرها ..(I.N.S.E.E, 1948) ، وأنشأ (ايدمون دو روتشيلد) (Edmond de Rothschild) أكبر مستوطنة بفلسطين سنة 1884م على مساحة قدرها 1156 هكتار تقع على الساحل المتوسطي بين غزة وتل أبيب، منح لها اسم أُمّه (Ekron)، وهي اليوم رابع أكبر مدينة في فلسطين المحتلة.

تبقى المساهمة الأكثر شيوعا للعائلة هي تلك التي بادر بها (ليوبولد دو روتشيلد) (Léopold de Rothschild) خلال الحرب العالمية الأولى، عبر دعمه المادي الطائل لبريطانيا خلال فترة الحرب، وكان ذلك نظير خدمة مرتقبة تصب في مصلحة يهود بلاده لأنه كان رئيس اتحاد البيع البريطانية، وأيضا رئيس صندوق النجدة لفائدة اليهود ضحايا الحرب في روسيا (M. Léopold de Rotschild, de Londrés. A l'occasion de son 70è Anniversaire, 1916).

كان أثرياء اليهود في بريطانيا، بالإضافة إلى ما سبق، على وعي تام بحاجة الحكومة البريطانية لدعمهم ومساندتهم وهي في فترة حرب، ومدركين تمام الادراك بأنهم أمام فرصة تاريخية لطلب خدمة خاصة من حكومة جلالة الملك. ولذلك تهافتوا على تسخير كل ما يمكن تسخيره من وسائل مادية وبشرية خدمة لبريطانيا ومن وراء ذلك قضيتهم التاريخية. فقد سخروا قدراتهم المالية، وامكانياتهم العقارية وطاقاتهم البشرية خدمة للجهود العسكرية البريطانية؛ حيث جنّدت بريطانيا عددا منهم في الحرب ضد العثمانيين في فلسطين بالخصوص! وقد تمّ إحصاء 40 ألف جندي يهودي في صفوف القوات الملكية التي حاربت العثمانيين في فلسطين، وكان من بينهم 8000 مستوطن. أما قيادتهم فقد أسندت إلى المقدّم الإيرلندي باترسون (J.H. Patterson) (1917)..

3.2 . استغلال مآسي اليهود عبر العالم لتحقيق العطف الدولي واحراز مصداقية للمشروع:

بعد الشروع المبكّر في العمل الدؤوب من أجل التوطّن في فلسطين بشريا وعبر مختلف المؤسّسات، راح اليهود يبحثون لهم عن آلية ووسيلة تساعدهم في تجسيد حلمهم التّاريخي في فلسطين؛ حيث شرع الصهاينة في استغلال كل المعطيات التاريخية رغم غموضها وكل الأحداث السياسية وغيرها للفت انتباه القوى الكبرى لوضعهم وغبنهم! ومن ثمّ استدراجهم للبحث لهم عن حل، أو بالأحرى للقبول بمشروعهم والمخطّط الذي رسموه لأنفسهم منذ سنوات، عبر تقديم إيحاءات وحجج وتبريرات للمكان. ولعلّ الحدث الذي استخدم بشكل فعّال مع بداية الحرب هو إقدام الإدارة العثمانية على إبعاد 686 يهودي

من فلسطين كانوا قد قدموا في وقت سابق من روسيا، حيث تمّ توجيههم إلى بور سعيد (مصر) على متن السفينة الإيطالية (Vincenzo Florio) على أن يتم إبعاد الباقي لاحقا.

وكان مجموع اليهود الذين مسّهم ذلك الإبعاد من فلسطين باتجاه مصر هو 12000 شخص، (بين شهري ديسمبر 1914 وماي 1915) وجاء ذلك على إثر دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى في صف دول المحور (les Réfugiés israélites de Palestine en Egypte, 1917).

استغلّت الجريدة البريطانية (The Globe) ذلك الحدث وبادرت إلى نشر في أحد أعدادها لسنة 1915 اقتراحا يقضي بإقامة دولة عازلة بين مصر (البريطانية) وسوريا (العثمانية)، وهي إشارات غير مباشرة تصبّ في سياق تجسيد الدولة الإسرائيلية في فلسطين(1915) .

لم يعوّل اليهود على ما كان يصدر أو سيصدر من مضايقات في حق اليهود هنا وهناك من العالم للمضيّ نحو استعطاف القوى السياسية المؤثرة في العالم وكذا الرأي العام بها فقط، وإنما كانوا بالموازاة مع ذلك ينشطون عبر مختلف المؤتمرات الصهيونية التي سُخّرت لوضع خريطة طريق مستقبلية؛ حيث تقرّر خلال مؤتمرها الحادي عشر المنعقد في فينا بتاريخ 8 سبتمبر1913، وضع استراتيجية عمل مستقبلية تقوم على:

- السّعي لشراء المزيد من الأراضي بفلسطين؛
- توطين المزيد من العناصر اليهودية؛
- القيام بتحسينات عقارية وبأشغال تخصّ التهيئة العمرانية؛
- تشجيع التعاونيات الفلاحية؛
- تشجيع البنوك الإسرائيلية والصندوق الوطني؛
- الرفع من القوة المالية للمنظمة الصهيونية لصالح المؤسسات الاستيطانية والتربوية (بما في ذلك مشروع جامعة القدس) ومدارس أخرى(1913) .

كما تمّ الاتفاق أيضا خلال اجتماع اللجنة التنفيذية للمؤتمر اليهودي الأمريكي بنيو يورك بتاريخ 22 أوت 1916 على مجموعة من النقاط، منها:

- الحق المدني والديني والسياسي لليهود؛
- الإبقاء على حقوق اليهود في فلسطين والمطالبة بالمزيد منها(1916) .

استمر تجنّد يهود الولايات المتحدة الأمريكية لفائدة قضية كل اليهود (الصهاينة)، خلال الجمعية السنوية الثامنة (Kehilla) بنيويورك التي شملت 300 مندوب، وكان الموضوع الأساسي هو استعادة فلسطين اليهودية، وانتهى ذلك بالتصويت على القرار التالي: " ... قرّرنا نحن مندوبو المجموعة اليهودية بنيويورك، المجتمعون في هذه الجمعية العامة، تأكيد إيماننا ... في انتصار الولايات المتحدة الأمريكية ... وثقتنا كبيرة في أنها ستعمل جنبا إلى جنب مع حلفائها بكل قوة في تحقيق آمال الشعب اليهودي في فلسطين واعتبارها وطن حر ومعترف به"(1917) .

ويتّضح مما سبق أن اليهود كانوا مصمّمين على انتهاز فرصة الحرب لتحقيق مقاصدهم الحيوية، وكانوا يعوّلون على كل من بمقدوره المساهمة في تحقيق حلمهم، سواء تعلّق الأمر ببريطانيا، أو بالولايات المتحدة الأمريكية أو غيرهما. وقد يكون تحرّك اليهود في أمريكا وتعويلهم عليها في مشروعهم، هو الذي دفع بالمملكة البريطانية إلى القيام بالمبادرة التاريخية (وعد بلفور)، وذلك قصد كسب اليهود وما يمثلونه من ثقل اقتصادي ومادي ونحن في مرحلة حرب، الأمر الذي يقودنا أيضا إلى الجزم بأن اليهود كانوا يعرفون جيّدا من أين تؤكل الكتف.

4.2 . تأثير اليهود في القرار السّياسي البريطاني أثناء الحرب:

استثمر اليهود طيلة الحرب العالمية الأولى في توجيه القرار السياسي البريطاني، عبر تأسيس أسبوعية (فلسطين) خصيصا لضمان التحضير لانتقال البلد إلى دولة يهودية داخل الإمبراطورية البريطانية، كما أن مجلة (The Near Est) مع أن اهتمامها هو الشرق الأقصى، إلا أنها كانت تعود باستمرار للحديث عن فلسطين. كما أن المجلة الفصلية الأخرى (Palestine Exploration) قامت بدور كذلك في ذلك الاتجاه؛ لأنها ابتعدت عن مواضيع الآثار وباتت تخوض في الأمور السياسية ذات الصلة بالمستقبل السياسي لفلسطين.

يجب التنويه أيضا بمجلة (Quaterly Review)التي كتبت في شهر مارس 1917 عن موضوع تهويد فلسطين من خلال مقال ل (Albert M. Hyainson) بعنوان: " مصر وفلسطين" والذي ختمه بالمناداة بإقامة دولة يهودية تحت الحماية البريطانية.

سلكت بعد ذلك المجلات الشهرية نفس نهج المجلات الفصلية السابقة الذكر؛ ومن ذلك مجلة (The Fortnightly) التي نشرت مجموعة من المقالات حول مثالية الصهيونية

بقلم الصحفي جوزيف كوهين (Joseph Cowen) وغيره. كما نشر اللّورد كرومر (Lord Cromer) في مجلة (The Spectator) دراسة لكتاب "الصهيونية ومستقبل اليهود" (Zionisme and the Jewish Futur) الذي لفت انتباه الكثير من القرّاء في العديد من الدول(B.S, 1917) .

صدرت كذلك، علاوة على ما سلف، عدّة مقالات في الجرائد الصهيونية في بريطانيا أيضا حول الموضوع، ومن ذلك المقال الذي نشرته مجلة (The New Europe) التي كانت تهتم بتسويات ما بعد الحرب، وجاء المقال بعنوان: " بريطانيا، فلسطين واليهود"، كما نشرت مجلة (The Yorkshire Post) في عدد 12 أفريل مقالا بعنوان " إعادة اليهود إلى فلسطين"، لتكتب بعد ثلاثة أيام من ذلك مجلة أخرى (Sunday Chronicle) مقالا أشارت فيه إلى أن فلسطين اليهودية هي ضرورة بريطانية يهودية، كما نشرت في ذات اليوم 15 أفريل أسبوعية (Weekly Dispatch) مقالين؛ الأول كان بعنوان "عودة اليهود إلى فلسطين، مأساة 2000 سنة تحققها الحرب"، أما الثاني فجاء تحت عنوان: " المعجزات اليهودية الأخيرة، النزوح الجديد"(B.S, 1917) .

زيادة على ما سبق، عرف اليهود كيف يستثمرون المعطيات السياسية التي كانت زمن الحرب العالمية الأولى لصالحهم، وكيف يستغلون تفاعل الحكومة البريطانية معهم بعد الخدمات التي قدموها لها، وفي ذات الاتجاه قامت 250 مؤسسة ومنظمة يهودية في كل البلاد بتقديم طلب إلى الحكومة البريطانية بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين (l'Angleterre en faveur du sionisme, 1917).

3 . المناورات الصهيونية خلال الحرب العالمية الأولى:

أدرك الصهاينة بأنّ الحرب العالمية الأولى فرصة تاريخية لا يمكن إضاعتها بأيّ حال من الأحوال، ولذلك باشر زعماؤها في التفاوض مع قادة دول الحلفاء منذ سنة 1915من أجل اقحامهم كأطراف أساسية في التسويات اللاّحقة. ولتحضير الرأي العام اليهودي والضغط على صنّاع القرار في بريطانيا وجّهت جريدة (بعث الشعب اليهودي) نداء إلى الشباب اليهودي تدعوهم فيه إلى الاستعداد لليوم الكبير: " كونوا جاهزين، مهما كانت وضعية فلسطين القادمة؛ قد تكونون ضمن حركة كبيرة ستفضي إليها الأحداث السياسية الحالية، ولذلك نقول لكم، مع تحمّل كل مسؤولية ذلك: حضّروا أنفسكم، فالوطن

بحاجة إلى طاقات شابة في هذا الوقت الهام الذي تعمل الأحداث التاريخية على تهيئته" (lettre de l'organisation HEHOLOUTZ de New York, 1917).

بالفعل، فقد كلّلت مساعي اليهود وتحرّكاتهم بوعد بلفور في 2 نوفمبر 1917، وسارعت الحركة الصهيونية إلى نشر مضمونه في احدى صفحات جريدة (Jewish Chronicle) ليوم 9 نوفمبر 1917م.

رغم هذا الوعد، إلاّ أنّ الصورة بقيت غامضة نوعا ما لدى بعض اليهود، إلى أن قام النائب كينغ (King) في اجتماع لمجلس العموم البريطاني، أياما بعد صدور الوعد، بطرح سؤال على (بلفور) حول ما إذا كان قد تم إعلام الحلفاء بشأن موضوع فلسطين اليهودية، وهل موضوع إقامة وطن قومي لليهود كان من الأهداف البريطانية في الحرب، وكان رد وزير الخارجية بأن الحلفاء لم يتلقّوا أي خطاب رسمي بهذا الشأن، ولكن حكومة جلالة الملك ترى بأن هذا الإعلان سيلقى موافقتهم، وأن إقامة وطن يهودي في فلسطين سيكون أحد نتائج الحرب.

كما أضاف بأن الحكومة الأمريكية وعلى رأسها الرئيس (ولسن) تساند منذ فترة طويلة الفكرة. أما عن فرنسا وإيطاليا فقال (بلفور) بأن (وايزمان) رئيس الفيدرالية البريطانية صرّح في آخر اجتماع فيدرالي بأن (ناهوم سوكولوف) (Nahum Sokolov) ممثل المنظمات الصهيونية قد ارتاد على كليهما، وتلقّى من الحكومتين ضمانات أكيدة بشأن دعمهما وتأييدهما للفكرة، كما أن ذات الشخص زار الفاتيكان أيضا في ربيع 1917 ويبدو أن البابا لم يبد أي اعتراض على الموضوع(Hagani, 1917) .

4 . المواقف الرّسمية للقوى الكبرى من وعد بلفور:

اتّضح الموقف الفرنسي وأصبح رسميا بعد لقاء (سوكولوف) بوزير الخارجية الفرنسي (ستيفان بيشون) بتاريخ 9 فيفري 1918، حيث أعرب له عن موقف بلاده الدّاعم لمنح فلسطين لليهود، وتبع ذلك بتصريح رسمي نشر في الصحافة الفرنسية في 16 فيفري من ذات السنة (le Sionisme devant la conférence de la paix, 1918) .

كما تم الإقرار بالوعد من قبل الحكومة الإيطالية من خلال رسالة الماركيز امبريالي (Imperiali) سفير بلاده في لندن إلى (سوكولوف) بتاريخ 9 ماي 1918، كما وافق عليه الرئيس الأمريكي أيضا في رسالة منه إلى الحاخام (S. Wise) بتاريخ 31 اوت 1918 (le Sionisme devant l conférence de la paix, Recueil de documents étrangers, 1919).

كما تجب الإشارة إلى أن السّفير الذي عيّنته الإدارة الأمريكية لتمثيل بلاده في تركيا خلال الحرب العالمية الأولى هو (M. Morgenthau) الذي كان رئيس البيعة اليهودية بنيو يورك، قبل أن يستقيل من منصبه خلال النصف الأول من سنة 1916، وعوّض ب (M. Abram J. Elkus) وكان يهوديا أيضا وعضو بمجلس إدارة ذات البيعة اليهودية بنيو يورك، وهو تعيين يحمل عدّة دلالات...

بعد الاتفاقية البريطانية مع الشريف حسين (الحسين – مكماهون) 1916م، القاضية بمنح العرب حكومة وطنية مستقلّة، ها هي بريطانيا تقدّم وعدا آخر لليهود بمنحهم فلسطين لإقامة وطن قومي لهم فيها؛ وبهذا قطعت بريطانيا على نفسها وعدين متناقضين لطرفين متنافرين، وهو ما يعني أنها كانت تخدع أحد الطرفين بالضرورة...

5 . الحرب في المشرق العربي وانهيار القوات العثمانية:

ساهمت القوات البريطانية الآتية من الهند ومصر بالخصوص، بدعم من آلاف اليهود بما في ذلك مستوطنون يهود في تمكين الجنرال آلنبي (Allenby) من تحقيق الانتصار العسكري، وكان ذلك مع الأسف بتواطؤ ودعم عربي؛ حيث أقدمت قوات ملك الحجاز في شرق الأردن على تخريب كبير لطرق المواصلات بما في ذلك الجسور والسكك الحديدية، الأمر الذي عطّل انسحاب القوات العثمانية باتجاه الشمال حيث فلسطين...

إن تلك العملية مكّنت القوات الحليفة (البريطانية والفرنسية في المنطقة) من ترصّد القوات العثمانية عند المناطق المتبقية فقط، وفعلا فقد تمكّنوا من أسر أكثر من 18000 جندي عثماني، والاستيلاء على 120 مدفعا زيادة على العديد من المعدات والآلات.

بعد هذه الهزيمة العسكرية وغيرها أشارت الجريدة البريطانية (Daily Telegraph) إلى أن الإمبراطورية العثمانية باتت تحتضر خاصة بعد أن سيطرت القوات البريطانية والفرنسية على ميناء حيفا وكذا على الخطوط الأساسية للسكة الحديدية بالمنطقة؛ فبعد قيام قوات "ملك الحجاز" بقطع طريق العودة على القوات العثمانية التي كانت قرب نهر الأردن من خلال تخريبها للخطوط الحديدية وتدمير جسر نهر اليرموك. كتبت جريدة (The Times) اللندنية في عددها ليوم 23 سبتمبر 1918 بأن الجيش التركي لم يعد موجودا. ونظرا لكل ذلك طلبت صحيفة (The Morning Post) البريطانية من الحلفاء ببذل مجهودات ديبلوماسية لإخراج تركيا من مجموعة القوى المركزية(1918) .

لقد مكّنت الانتصارات العسكرية السالفة الذكر، بعد أن استعملت فيها بريطانيا الغازات السّامة على نطاق واسع...، (الجنرال آلنبي) من دخول القدس بتاريخ 11 ديسمبر 1917 وكان في استقباله عند باب يافا كل من: قائد القوات الفرنسية والإيطالية، وكذا الملحق العسكري الفرنسي والإيطالي والأمريكي. بالإضافة إلى الحرّاس الممثلين لكل من إنجلترا، ايقوسيا، ايرلندا، بلاد الغال، استراليا، نيوزلندا، الهند، وفرنسا وإيطاليا(1917) .

6 . الجنرال (آلنبي) يشرع في تجسيد المؤامرة الاستعمارية على فلسطين:

قام الجنرال (ألّنبي) بعد تحقيق النّصر العسكري، بزيارة المدرسة الفلاحية (Mikweh-Israel) حيث تفقّد كل مرافقها؛ (الداخلية، المكتبة، ...) ثم توجه لزيارة قبر شارل نيتر (Charles Netter) أحد المؤسسين الستّة للتحالف الصهيوني العالمي، توفي بمدينة يافا بفلسطين بوباء الملاريا سنة 1882م، ثم زار أيضا الحقول المجاورة(1918) . كما وافقت الحكومة البريطانية على طلب من المنظمة الإسرائيلية البريطانية بتشكيل لجنة للقيام بتحقيق يخص المستوطنات اليهودية بفلسطين؛ وكانت مهمتها تتمثل في:

- إرجاع اليهود المبعدين إلى فلسطين؛
- إعادة فتح المؤسسات اليهودية بفلسطين؛
- تهيئة المستوطنات المتضررة من الحرب.

بحلول سنة 1920 تمكّنت بريطانيا من الفوز بإدارة فلسطين وفق شروط معاهدة الصلح مع تركيا، ولقد سلك الساسة البريطانيون مسالك معقدة لبلوغ تلك الغاية عبر استعمال الحركة الصهيونية للاتفاق مع الفاتيكان، من أجل تنصيب اللورد هيربرت صموئيل حاكما على القدس. وأوّل إجراء قام به " أمير إسرائيل" كما يسميه اليهود، هو إقرار (الشابات) عيدا رسميا وقانونيا في فلسطين، ثم سعى إلى جعل فلسطين بالنسبة لليهود مركزا دينيا واقتصاديا وعلميا وثقافيا، بعد أن وزعت الأراضي عليهم ووضع حجر أساس الجامعة اليهودية(1920) .

7 . مؤتمر الصلح والكيل بمكيالين:

استمع مجلس العشرة في مؤتمر الصلح بتاريخ 27 فبراير 1919 إلى كل من (N. Sokolow) و(H.Weizmann) باسم المنظمة الصهيونية، كما استمعوا أيضا إلى كل من: (N. Ussischkine) ممثل الصهاينة الروس، وإلى (André Spire) سكرتير رابطة (أصدقاء الصهيونية)، وكذا إلى (Sylvain Lévi) ممثل فرنسا لدى اللجنة الصهيونية بفلسطين.

عرض (وايزمان) في تصريح أدلى به إلى جريدة (Jewish Chronicle) بتاريخ 7 مارس 1919 مطالب الحركة الصهيونية المقدمة من قبل المندوبين الصهاينة الموجودين بمؤتمر الصلح، وكانت كما يلي:

- الاعتراف بالحق التاريخي للشعب اليهودي في تأسيس وطن قومي لهم بفلسطين؛
- تعيين الحدود الفلسطينية حسب المعطيات المرفقة (...)؛
- منح الوصاية الفلسطينية لعصبة الأمم مع إلزامية منح إدارة الانتداب إلى بريطانيا بصفتها متصرف في شؤون الرابطة الصهيونية.
- يخضع الانتداب البريطاني إلى الشروط الخاصة التالية:

- تسيّر فلسطين وفق شروط سياسية وإدارية واقتصادية بحيث تضمن إقامة وطن قومي يهودي بها، وتجعل من انشاء دولة مستقلة أمرا ممكنا.
- على إدارة الانتداب، أن تشجع الهجرة اليهودية والاستيطان ...
- قبول التعاون في كل الإجراءات التي تراها ضرورية، من حين لآخر، من أجل تنفيذ بنود الاتفاق بإقامة مجلس تمثيلي لليهود فلسطين والمجموعات اليهودية عبر العالم،

الذي تكون مهمته تطوير الوطن القومي اليهودي، ويتكفّل هذا المجلس بتنظيم التعليم العبري، ويحظى دوره العمومي بالإقرار.

- تمنح الأولوية لهذا المجلس في الحصول على الأراضي التي يراها ضرورية للمصلحة العمومية، أو من أجل تطوير المقدرات والامكانيات الطبيعية للبلد.
- على الدّولة المنتدبة تشجيع، بشكل أكثر اتساعا، الاستقلال المحلي القابل للتحقيق حسب ظروف البلد؛
- إقرار الحرية لكل الديانات وضمان استمراريتها إلى الأبد في فلسطين، على ألاّ يكون أي تفضيل على أساس ديني أو عرقي بين السكان فيما يتعلق بحقوق السكن، أو الحقوق المدنية أو السياسية. !
- اتخاذ الإجراءات اللازمة لمراقبة الأماكن المقدّسة.

وأكّد (وايزمان) خلال ذات النّدوة الصحفية على وجوب توفير كل الشروط بفلسطين لتمكينها من استقبال 60000 مهاجر يهودي كل سنة، وتطوير اللغة العبرية واتخاذها كلغة حيّة وتعزيز الحضارة اليهودية، وإقامة إدارة قادرة على تسيير البلاد في ظل الظروف الطبيعية (المحافظة على مصالح غير اليهود بشكل عادل ...) (le Sionisme devant l conférence de la paix, Recueil de documents étrangers, 1919).

يتّضح جليّا بأن الحركة الصهيونية، على خطى بريطانيا، كانت تتعهّد بالحقوق والعدالة في التعامل والحرية الدينية لجميع السكّان من أجل الانقضاض على الدول المجتمعة في المؤتمر، ودفعها إلى أن تكون الطّرف الأساس في معادلة فلسطين الجديدة، الأمر الذي نجحت فيه إلى أبعد الحدود. أما الوفود العربية (فيصل بن الحسين (سوريا الكبرى)، الأمير خالد (الجزائر)، سعد زغلول (مصر) وعبد العزيز الثعالبي (تونس) التي حضرت إلى المؤتمر الصلح طمعا في الحصول على بعض الحقوق المسلوبة فإنّها قد عادت بخُفي حنين، لأنّ المؤتمر أقرّ بأنها ستكون وستبقى الضّحية وفق تصوّرهم الجديد للمنطقة العربية.

8. رد الفعل العربي في فلسطين وغيرها من الأحداث:

أحسّ عرب فلسطين بالاحتقار والخطر الذي بات يهدّد مصيرهم السياسي والاقتصادي؛ فرغم تفوّقهم العددي إلاّ أن السلطات البريطانية مكّنت اليهود ومنحتهم

النّفوذ والسّلطة السياسية والاقتصادية، وكأن القرار الذي اتخذته فرنسا في الجزائر سنة 1870 بمنحها الجنسية الفرنسية لليهود جماعيا قد تكرّر، ولكن بشكل أكثر عنفا وتأثيرا هذه المرّة. لقد بات واضحا بأنّ القوى الاستعمارية الكبرى اتّفقت على نصرة اليهود في كل مكان، بل على تمكينهم من فلسطين عبر منطق القوّة، وهي بذلك تتحمّل المسؤولية التاريخية كاملة، خاصة وأنّ ذلك جاء في وقت كانت فيه البلاد العربية تمُرّ بفترة ضعف وعجز!

ومع ذلك فضّل العرب في مؤتمر (سان ريمو) في 25 أفريل 1920 منح تسيير فترة الانتداب على فلسطين للولايات المتحدة الأمريكية، في حين أن اليهود، مدعّمين بالحركة الصهيونية العالمية، اصرّوا ألا يكون التسيير إلاّ لبريطانيا. وكانت الرغبة الثانية هي التي تجسّدت وقبلت بها تركيا ضمن بنود معاهدة (سيفر)(économiques, 1948) .

قام عرب فلسطين منذ فرض الانتداب بمجموعة من المبادرات السياسية، بداية بتأسيس لجنة تنفيذية سنة 1919 كلّفت بمراقبة تطوّر الهجرة اليهودية في ظل الحكومة العسكرية البريطانية. وبعد أن لاحظ الفلسطينيون أن أحلامهم في الاستقلال قد تبخّرت، وأن الوعود التي قدّمت لهم أثناء الحرب قد خابت، قاموا بمظاهرات وثورات (1920-1921)، بزعامة (الأمين الحسيني) ضد السياسة البريطانية التي كانت تسعى إلى دفع العرب إلى القبول بالهجرة اليهودية كحقيقة وكواقع محتوم، وهو ما رفضه الفلسطينيون جملة وتفصيلا(économiques, 1948) .

كما تشكّلت لجنة عربية أخرى سافرت إلى لندن حاملة لعريضة ممضاة من قبل عدد كبير من الأعيان، قدّمت إلى مجلس عصبة الأمم بتاريخ 19 جوان 1922 بقصر (سان جيمس)، وطالب الموقّعون على العريضة من العصبة عرض قضيتهم على مجلس العصبة (1922).

علاوة على ذلك فقد رُصدت معلومات واردة من (مكّة) نشرتها جريدة (Daily Express) تفيد بقيام عشرات الآلاف من الحجّاج بمظاهرة منددّة بوعد بلفور ومطالبة بريطانيا بالوفاء بوعودها للعرب. ولم تهدأ الأوضاع إلا بعد أن خطب (الملك حسين) في الجموع لمدّة ساعتين، تعهّد خلالها بأنّه سيدافع عن المسجد الأقصى(1922) .

لم يكتف الفلسطينيون بكتابة العرائض وبالتنديد فحسب وهم يعاينون تزايد نفوذ وعدد الصهاينة في البلاد بتواطؤ بريطاني صريح، بل باشروا الكفاح من القدس شهر

أكتوبر 1928 بمناسبة عيد الصفح اليهودي؛ حيث تعرّض بعض اليهود إلى مشادات، ناشد اليهود على إثرها الحاكم البريطاني بالتدخّل. كما شرع الفلسطينيون في إقامة بنايات على حواف حائط المبكى لحماية المسجد الأقصى من الاعتداء، الأمر الذي تسبّب من جديد في حدوث صدامات بين الطرفين يوم 23 أوت 1928(1928) .

استمرّت ثورة الشعب الفلسطيني خلال السنة الموالية أيضا، حيث أشارت المصادر إلى أن نحو 2000 عربي مدعّمين من قبل عناصر درزية قدموا من الشمال باتجاه القدس، وقعت بينهم وبين اليهود وجنود الإدارة الاستعمارية عدّة مواجهات دامية في حيفا وغيرها، وقد استعملت بريطانيا سلاح المدفعية لقصف الثّوار (1928) .

أشارت الحصيلة الرسمية البريطانية (Colonial Office) إلى جرح 426 شخص ومقتل 143 آخرون؛ 50 عربي (منهم أربعة مسيحيين) و93 يهودي، وكان من بين القتلى مدير السكك الحديدية بفلسطين (M. Sykes).

9 . موقف اليهود في العالم من الأحداث:

كل الصحف البريطانية تقريبا لامت الحكومة البريطانية على ما حصل وفي مقدّمتها (Daily Chronicle)و(Daily News) .

كما أولت الصحافة في الولايات المتحدة الأمريكية أيضا أهمية بالغة لما حصل، إلى درجة أنّ ذلك كاد ان يؤثر على العلاقات الأنجلو أمريكية، ومن الصحف التي كتبت بإسهاب عن أحداث فلسطين نجد:

New York Times (15 عمودا)

New York Herald (12 عمودا)

زيادة على ذلك أرسل يهود الولايات المتحدة ممثلين عنهم للتنديد بما حصل لدى سكرتير الدولة الأمريكي (M. Stimson)، كما استقبلهم السفير البريطاني في الولايات المتحدة (ايسم هووارد) الذي تعهدهم بأن حكومة بلاده ستبذل مجهودات لمواجهة الوضع (1928).

كما تجب الإشارة إلى خروج نحو 30.000 يهودي إلى شوارع في (بيونس آيرس) بالأرجنتين معبّرين عن تعاطفهم مع اليهود في فلسطين، وتوجه وفد منهم إلى السفارة البريطانية لإسماع رأيهم المندّد بما حصل. كما رفضت الشرطة المحلية في مصر السّماح لليهود بالتظاهر، ولذلك اكتفوا بإرسال عريضة إلى عصبة الأمم. أما في (وارسو) فقد قام

بعض الشباب اليهودي بالهجوم على السفارة البريطانية، بينما في باريس فقد قام (جابوتينسكي) القادم من فلسطين أمام جمع من الصهاينة في قاعة المهندسين المدنيين باتهام الحكومة البريطانية في فلسطين بانحيازها ودعمها للعرب خلال المواجهات الأخيرة. وخلص الاجتماع بترديد نشيد المستوطنات اليهودية بفلسطين (حاتيكواه)(1929) .

بعد هذه المواقف والضغوط الحكومية وغير الحكومية المنحازة لليهود، لجأت الحكومة البريطانية إلى إرسال تعزيزات عسكرية إلى فلسطين؛ وشمل ذلك السفن الحربية التالية:

(Sussex), (Braham), (Courageous), (Veteran), (Wanderer) بالإضافة إلى ثلاث كتائب، علاوة على مفرزة من جنود الهندسة، وجنود إشارة، وكذا قافلة من السيارات المدرّعة، وفرقة طيران. زيادة على وضع كتيبتين للمدفعية بمالطا (البريطانية) وحاملة الطائرات (Eagle) و5 سفن حربية أخرى في حالة تأهب لذهاب محتمل إلى فلسطين (1929).

هل نال قدوم التعزيزات البريطانية من عزيمة الفلسطينيين؟

تشير المصادر الأجنبية إلى أنه رغم التعزيزات البريطانية إلا أن ثورة الفلسطينيين لم تتوقف، حيث تواصلت وبأشكال مختلفة وفي مناطق متفرّقة؛ عبر استهداف بعض مزارع ومنازل ومعابد اليهود، وكانت الحصيلة مقتل 59 يهودي، وإصابة 67 آخرون بجروح خطيرة، بالإضافة إلى مقتل 30 فلسطيني.

جاء رد الفعل البريطاني عبر القمع العنيف كالعادة، من خلال تكليف السفينة الحربية (Braham) بقصف المتظاهرين بضواحي (حيفا)، أما عدد الموقوفين من الفلسطينيين فبلغ ثلاثون شخصا(1929) .

بعد الثورة التي اندلعت في كل شبر من فلسطين: (يافا، حيفا، القدس، غزة) وغيرها، اجتمع يوم 30 أوت بلندن نحو 2000 يهودي من الحركة الصهيونية في الحي اليهودي بالمدينة، وانتهوا إلى الاجماع على تثمين الإجراءات التي اتخذتها الحكومة البريطانية، كما طالب السيناتور الأمريكي (Bourah) بضرورة التنسيق بين الحكومتين الأمريكية والبريطانية من أجل وضع برنامج مشترك لتلافي تكرار ما حصل(1929) .

استمرت الهجومات العربية في الرّابع من شهر سبتمبر في ضواحي القدس أسفرت عن استشهاد 12 فلسطينيا، ثم انتقلت إلى الجنوب (بئر السبع)، ممّا اضطرّ السلطات

البريطانية إلى ارسال تعزيزات عسكرية إليها. كما أشارت تقارير من بيروت، بأن السلطات الفرنسية في سوريا منعت مرور عدد من العرب إلى فلسطين للمشاركة في دعم إخوانهم بها (1929)

كما منعت الطائرات البريطانية من خلال طلعات جوية على الحدود مع سوريا دخول جموع من العرب إلى فلسطين بعد أن استهدفتهم بوابل من القنابل.

في خضم هذه التطورات نسجل وفاة النّقيب (Edouard Francis Bilfin) ابن الجنرال (بلفين)، الذي كان قد نقل من مصر إلى فلسطين في مهمة خاصة، وكانت وفاته في ظروف غامضة (1929).

10 . رسالة الجمعية العربية السّورية في باريس:

على إثر القمع الشديد الذي جوبهت به الثورات والانتفاضات العربية في عدّة مدن وبلدات من فلسطين، كتبت الجمعية العربية السورية التي تتكون من الرعايا السوريين وبعض العرب المقيمين في باريس، رسالة تنديد بعثت بها إلى كل من عصبة الأمم، ووزارة الخارجية الفرنسية بالإضافة إلى سفارات وقنصليات الدول الكبرى وكذا إلى أهم الصحف اليومية الفرنسية.

تضمنت الرسالة رفض صريح للمشروع الصهيوني الذي تدعمه بريطانيا: «كيف يمكن إقامة وطن قومي لليهود في أرض تضم 80 ألف يهودي فقط من أصل 800 ألف نسمة"؟

تضيف الرسالة: "إن المنظمة الصهيونية تتحمل كل المسؤولية عن الاحداث التي وقعت، وهي تسعى اليوم إلى بذل كل الجهود من أجل تشويه تلك الأحداث والعمل على تحويلها لصالحها من خلال حملة إعلامية مغرضة (...) إن هذه المنظمة الصهيونية تشتكي من عدم قيام الإدارة البريطانية بواجبها وأنها لم تكن صارمة مع العرب، في حين أن تلك القوة لم تقم منذ احتلالها لفلسطين سنة 1918 إلا بخدمة المصالح الصهيونية وتسخير كل الإمكانيات لها على حساب غالبية السكان".

"إن المنظمة الصهيونية ومن ورائها بريطانيا تسعى إلى بلوغ أهدافها ولا تهمها لا القوانين ولا العدالة. ولقد تمكنت بفضل خططها من تغليط عدد كبير من دول العالم. لكن لا يمكن الاستمرار في هذه اللعبة الخطيرة. لقد قرر عرب فلسطين مسلمين ومسيحيين من أبناء المنطقة الدفاع عنها ضد الظلم وضد المحتل (...) إن هذا العالم مدجج

بالسّلاح ومهّيأ لنشر الاضطرابات في منطقة هي في أمس الحاجة إلى السّلام والهدوء "(1929).

لم ترد الإشارة إلى باريس إلاّ في السّياق التاريخي للأحداث فحسب، لأن الواقع كان يكشف تعاطف الفرنسيين الصّريح مع المنظمة الصهيونية بدليل رفض سلطات الانتداب في سوريا (الفرنسية) طلبات كثيرة من سوريين أرادوا اجتياز الحدود لتقديم الدّعم للفلسطينيين وذلك حسب مصادر فرنسية؛ وأبرز تلك الطلبات تلك التي كانت من أميرين سوريين (قبيلة الرولة وقبيلة أخرى كبيرة لم يُشر إلى اسمها)، بالإضافة إلى حمايتها للأحياء اليهودية كلّما كانت تندلع ثورة بالأراضي الفلسطينية.

كما تجب الإشارة إلى قلق مسلمي الهند في (بومباي) وغيرها من تطوّرات الوضع في فلسطين منذ البداية، حيث كانوا يتواصلون مع حكومتهم لدفعها إلى نصرة القضية، وكذا مع مفتي فلسطين معربين له عن دعمهم واستعدادهم لإفشال الأطماع الصهيونية.

على الصعيد الديبلوماسي، ذكر (الشيخ وهبة) المستشار الخاص لملك الحجاز (ابن سعود) الذي كان متواجدا بلندن حيث قال ردا عن سؤال من وكالة (رويترز) بشأن الوضع في فلسطين: "إنّ فلسطين هي أرض الديانات السماوية الثلاث، ولذلك آمل أن يعيش هؤلاء الثلاثة في انسجام"(1929) .

11 . تجدّد الثورة ونفي زعمائها:

لم تهدأ فلسطين العربية ولم تستسلم للأطماع الصهيونية، خاصة بعد تزايد موجات الهجرة اليهودية إليها بعد وصول (الحزب الوطني الاشتراكي) بألمانيا إلى الحكم سنة 1933 بشكل ملفت للانتباه، بحيث ارتفعت من 9553 مهاجر سنة 1932م إلى 30327 مهاجر سنة 1933م(économiques I. N., 1948) .

نتيجة لذلك، تجدّدت الاضطرابات في البلاد مستهدفة الإدارة البريطانية بالدّرجة الأولى. كما أن الخطر المشترك أدّى إلى توحُّد كل الأحزاب العربية في فلسطين سنة 1935م، من خلال مطالبتها بحكومة ديمقراطية، ومنع تدفّق اليهود على البلاد، بالإضافة إلى منع انتقال الأراضي إلى اليهود عبر عملية الشّراء، إلاّ أن الإدارة الاستعمارية لم تستجب لتلك المطالب.

تجدّدت الإضرابات من جديد سنة 1936 قبل أن تتحوّل إلى معارك مستهدفة إدارة الانتداب، لتستمر في شهر أكتوبر من السنة الموالية بشكل أكثر عنفا. كان موقف

الإدارة هو توقيف كل الزعماء في البلاد ونفيهم إلى (السيشل)، ولم ينجُ من العملية سوى مفتي القدس الذي تمكّن من الوصول متنكّرا إلى لبنان(économiques I. n., 1948) .

12 . مشروع تقسيم فلسطين (1938) وتحذير القمّة العربية:

كلّفت لجنة بيل (Peel) بدراسة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية بفلسطين، وعهد لها بوضع نظام قادر على تخليص المنطقة من "العنف"، فانتهت إلى تقديم اقتراح يقضي بتقسيم فلسطين إلى: دولة عربية وأخرى إسرائيلية؛ الدولة العربية تُضمُّ إلى شرق الأردن، كما يُمنح للعرب ميناء يافا. بينما يُعطى للإسرائيليين ميناء تل أبيب. أما بريطانيا فتحتفظ بحماية دائمة للأماكن المقدسة، وحماية مؤقتة على حيفا وعكا، كما تواصل سيطرتها على ميناء العقبة مع الاحتفاظ برواق يوصلها إلى القدس.

عرف هذا المشروع ب " مشروع تقسيم فلسطين" والذي وافق عليه مكتب العموم البريطاني بالأغلبية بتاريخ 7 جويلية 1937، إلا أنه لقي معارضة شديدة من قبل اليهود والعالم العربي معا.

رغم ذلك، شكلت لجنة تقنية من قبل وزير المستعمرات البريطاني أرسلت إلى فلسطين (من 27 أفريل إلى غاية بداية شهر أوت 1938) كلّفت برسم حدود كل من الدولة العربية واليهودية وكذا المنطقة التي تبقى خاضعة بصفة دائمة أو مؤقتة لبريطانيا، متجاهلين بذلك موقف الأطراف المعنية، وبالدّرجة الأولى العرب؛ لأنّ الموقف الإسرائيلي الرّافض لفكرة التقسيم قد يكون مفتعلا!

كلفت ذات اللجنة أيضا بإحصاء المسائل الاقتصادية والمالية التي تترتب عن ذلك التقسيم، والتي تسترعي البتّ بشأنها.

قاطع العرب هذه اللجنة، ولم يحضر إليها إلا المسيحيون واليهود، وخصصت لها حراسة مشددة أثناء تنقلاتها خاصة إلى الخليل، كما أن أعضاءها لم يتمكّنوا من زيارة معالم مدينة القدس القديمة، ومع ذلك التقت بالملك عبد الله بشرق الأردن(1938) .

لم يستقبل الفلسطينيون (المسلمين) اللجنة، وعبّروا عن استيائهم من خلال تجديد العمليات الثورية في المدن والقرى على حد سواء. وكانت الحصيلة خلال شهر جويلية 670 بين قتيل وجريح: 405 عربي و265 يهودي، بالإضافة إلى بعض العناصر البريطانية.

تشير المصادر إلى أن جل عرب فلسطين كانوا ضد مشروع التقسيم. كما أن ضراوة الثورة منعت القطارات من السّير ليلا، أما نهارا فكانت لا تتحرّك إلاّ بحراسة عسكرية مشدّدة، وهي مستجدّات أضرت بالاقتصاد الصهيوني البريطاني أيّما ضرر، ناهيك عن استهداف كل منشآت اليهود(1938) .

رغم التدابير العسكرية المشدّدة، تواصلت الثورة العربية بأكثر قوة وشدّة في ربيع 1938، ردّا على تماطل الإدارة البريطانية وعلى دعمها للهجرة اليهودية ولانتقال الأراضي إلى الصهاينة، واستهدفت هذه الثورة الانجليز والمتعاونين معهم.

جاء مؤتمر القاهرة في خضم هذه التطورات، ليقدّم دعما سياسيا للقضية وللشعب الفلسطيني من خلال تقديمه لتحذير شديد اللّهجة للإدارة البريطانية شمل ما يلي:

- عدم الاعتراف بوعد بلفور؛
- وقف فوري للهجرة اليهودية إلى فلسطين؛
- رفض كلّي لتقسيم فلسطين؛
- المطالبة بتشكيل حكومة دستورية بفلسطين، والتوقيع على اتفاقية بين العرب وبريطانيا؛
- المطالبة بالعفو العام عن كل الموقوفين في المظاهرات والثورات من سياسيين وغيرهم وكذا جميع القادة؛
- التأكيد على أن القبول بهذه المطالب هو الحل الوحيد للمسألة الفلسطينية، وإلا فإنّ الشعوب العربية ستعتبر كل من البريطانيين واليهود أعداء، مع كل ما سينجر عن ذلك من آثار اجتماعية، سياسية واقتصادية؛
- مطالبة الدول العربية بالموافقة على هذه القرارات ودعمها وتبليغها إلى بريطانيا وعصبة الأمم.
- تشكيل لجنة دائمة مقرها القاهرة مكلفة بمراقبة تنفيذ هذه القرارات(1938) .

13 . الموقف اليهودي بعد القمة العربية:

راسل المجلس الوطني اليهودي بفلسطين (وايزمان) معربين له عن رفضهم لهذه القرارات التي تقضي على آخر أمل لليهود، كما أشاروا إلى أن يهود فلسطين يثقون في الحكومة البريطانية وعبّروا عن أمالهم في عدم دعمها لهذه المطالب.

كما تطلب هذا الموقف العربي اجتماع كل من وزير المستعمرات البريطاني مالكولم ماكدونالد (Malcolm MacDonald) والمحافظ السامي هارولد ماكدونالد (Harold MacMichael) مع الموظفين السامين بالوزارة بلندن للتباحث بشأن تلك التطورات.

أثار احتمال وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين أيضا قلق اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية، وكرد فعل على ذلك صرّح السيناتور (Wagner) من نيو يورك بأنه سيذهب لملاقاة الرئيس (روزفلت) هذا اليوم رفقة عدد من زملائه قصد معرفة موقف الرئيس من الموضوع، وبالمرة الإلحاح على ضرورة تدخّله لدى الحكومة البريطانية لفائدة اليهود(1938) .

على الصّعيد الأمني، تعرّض موكب محافظ منطقة القدس في ذات الفترة إلى هجوم بالقنابل من على الحائط القديم للمدينة، كما قام الثوار بتدمير بئرين قرب تل أبيب، وإحراق قاطرة للسكك الحديدية المؤدية إلى حيفا، بالإضافة إلى تخريب معدات هاتفية في ضواحي المدينة. أما المواجهة الكبيرة فكانت بين القوات العربية والجنود البريطانيين شرق وشمال القدس، كما أن المعارك في نابلس كانت قوية جدا، حيث سجلت المصادر عشرات القتلى في صفوف القوات البريطانية وجرح آخرين، كما تمكّنت المقاومة من إسقاط طائرة عسكرية قرب رام الله وأسر طياريها(1938) .

استمرّت المواجهات أثناء الحرب العالمية الثانية، التي اشتدت خلالها الهجرة اليهودية إلى فلسطين بسبب أحداث الحرب في أوروبا، الأمر الذي استغلّه الحركة الصهيونية أيضا أيّما استغلال لكسب عطف المجتمع الدّولي، ودفعه إلى التعجيل بتجسيد الآمال الصهيونية في فلسطين.

تجب الإشارة إلى أن الأوضاع هدأت نسبيا مع بداية سنة 1939، إلى أن تم اصدار حكومة الانتداب لما عُرف بالكتاب الأبيض في 17 ماي 1939 الذي حمل ثلاث نقاط أساسية:

- إقامة دولة فلسطينية مستقلّة في مدّة عشر سنوات؛
- تسقيف الحد الأقصى لعدد اليهود بثلث السّكان؛

- منع بيع الأراضي العربية لليهود.

قوبلت هذه القرارات برفض بعض الأطراف الفلسطينية في مقدمتها مفتي القدس.

مهما يكن من أمر، فإن اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة 1939 أوقف الصّراع إلى حين.

ظلّ الصهاينة، حتى في سنوات الحرب الأولى، يترصّدون أي قرار يعارض مشروعهم القومي، وجاء ذلك باستصدار إدارة الانتداب لقرار منع الهجرة غير الشرعية لفلسطين وتحويلها إلى جزيرة (موريس)، حيث كان لليهود رد فعل عنيف من خلال التسبّب في عدّة تفجيرات بالقنابل، كما أن الصهاينة استغلّوا فرصة الحرب وشرعوا في التسلّح بعد أن شكّلوا جيشا سريّا (الهاغانا)(économiques I. n., 1948) .

في مارس 1945 تأسّست الجامعة العربية التي أقرّت بعضوية فلسطين كدولة ذات سيادة وكعنصر كامل الحقوق، وقابل الصهاينة ذلك الإجراء بعقد ندوة إسرائيلية بلندن في ذات السنة جدّدت فيها مطالبها التي كانت قد تقدّمت بها قبل بداية الحرب، وفي مقدمتها السماح بهجرة يهودية كثيفة نحو فلسطين، منتهزين فرصة ما حلّ باليهود من مآسي على يد النازيين.

ولعلّ ما يلفت الانتباه، هو تحمّس الرئيس الأمريكي (ترومان) لتلك الفكرة كثيرا، وفعلا كان من قرارات اللجنة الأنجلو أمريكية الصادرة في 20 أفريل 1946 تخصيص 100 ألف تأشيرة لليهود ...إلاّ أن المشروع لم يجسّد لأسباب استراتيجية على الأرجح، وليس لأسباب مالية كما ورد في بعض الكتابات الأجنبية.

أعلنت بريطانيا الاستعمارية بعد أن استكملت مرافقتها لكل الهياكل القاعدية الإسرائيلية في فلسطين، بما في ذلك تشكيل قوات (الهاغانا) و(الهيرغون) العسكرية (التي توحّدت لأسباب وطنية سنة 1948)، بأنها ترغب في إنهاء تواجدها بفلسطين وتحويل ملف ادارتها إلى هيئة الأمم المتحدة، وهو ما تمّ فعلا في 16 ماي 1948 بعد أن سيطرت القوات الإسرائيلية السّالفة الذكر على المناطق المتّفق عليها، وكانت الولايات المتّحدة الأمريكية، الراعي الجديد للصهيونية، أول المعترفين بتلك الدولة المزعومة والمفروضة فرضا وفق منطق الحقُّ للأقوى !

خاتمة

لم يكن الغرض من بحثنا هذا رصد كل محطّات المقاومة بأشكالها المختلفة داخل فلسطين منذ نهاية القرن 19 وإلى غاية سنة 1948، وإنما كان المغزى منه هو التطرّق إلى الوسائل المختلفة التي سلكها اليهود مع أطراف أخرى معادية للعرب من أجل غرس دولة صهيونية على أرض فلسطين، وكذا التعرّض إلى بعض المواقف الثورية التي لم نقرأ عنها فيما تصفّحنا من كتابات بشأن القضية الفلسطينية، أو كان الحديث عنها من زاوية مختلفة، وذلك بغية تلافي الإطناب والتكرار وسعيا لتحقيق الإفادة أيضا، وفي ذات الوقت توجيه القارئ إلى مصادر تاريخية جديدة ينبغي الالتفات إليها وتحليل محتوياتها.

عرف الصهاينة كيف يقيمون منشآت قاعدية في فلسطين منذ وقت مبكّر، وعرفوا أيضا كيف يستقطبون عطف حكومات القوى الكبرى في العالم لقضيتهم الملفّقة ...

وضع الصهاينة استراتيجيات مدروسة بإحكام، من أجل انتهاز كل الفرص المتاحة لتجسيد خططهم وتحقيق مآربهم في فلسطين، بما في ذلك الضّغط على الحكومات وتوجيه سياساتها كلما استوجب الأمر ذلك.

قاوم الفلسطينيون منذ القرن 19م بعد أن استشعروا الخطر اليهودي الأكيد، وضاعفوا من جهودهم بعد أن تجلّت الأطماع الصهيونية في البلاد وذلك بكل الوسائل المتوفّرة لديهم، إلا أن اختلال ميزان القوى بينهم وبين الصهاينة، والفرق الشاسع في الأطراف الداعمة والمؤيّدة لطرفي الصّراع؛ بين حركة صهيونية ذات إمكانيات مادية لا متناهية، ودعم سياسي من قبل أكبر القوى في العالم، وبين بلدان عربية مشتّتة ومهلهلة منها ما هو قابع تحت سلطة الاحتلال، وأخرى تعاني من فراغ سياسي، بعد انسحاب الأتراك منها مرغمين، وتنصّل ذات القوى الدّاعمة للصهيونية من وعودها للعرب بإنشاء حكومات وطنية مستقلة.

نظرا للجهود الجبّارة التي قام بها الصهاينة من أجل تجسيد دّولة اسرائيل (الشرعية في نظر الكثير من القوى الكبرى وبشكل رسمي)، فإنه لا الصهاينة سيسلّمون فيها مهما كلّفهم ذلك، كما أنّ الدّول الكبرى لن تتراجع في دعمها لها؛ لأن ذلك بات من الأسس والقناعات الثابتة لديها، مما يعني أن التعامل مع هذه القضية اليوم بات يقتضي الكثير من اليقظة والحكمة والصبر، ولكن دون الاضطرار إلى التنازل عن شرعية وحق الشّعب الفلسطيني المشروع في أرضه التاريخية المقدّسة. وفي ذات الوقت يجب التنويه

بالمسؤولية التاريخية الأكيدة للدوّل الكبرى المشار إليها في مآسي الشّعب الفلسطيني إلى اليوم، وبذلك فهي تتحمّل التبعات الأخلاقية والإنسانية لذلك أيضا. لأنّه حتّى وإن افترضنا بأنّ تلك المؤامرة جاءت في سياق نصرة " شعب مضطهد" فعلا، فإنّه لا يصحُّ أخلاقيا ولا إنسانيا أن تتجسّد تلك المؤازرة والمساندة عبر ظلم واضطهاد وقهر شعب آخر!

وفي الأخير، وجب التذكير بأنّ هذا المسار الذي سلكه المشروع الإسرائيلي في فلسطين بمختلف الآليات والفواعل، تسعى اليوم بعض الحركات الانفصالية لاسيما في شمال إفريقيا إلى تبنّيه ونسخه للاستفادة منه، مع تحوير ما يجب تحويره وتغيير ما يجب تغييره وذلك بهدف تحقيق أساطير أخرى في المنطقة.

قائمة المراجع

1. NORDAU, M. (1936). Ecrits Sionistes. Paris: Librairie LIPSCHUTZ.
2. HAGANI, B. (1917). Vers la réalisation d'une Etopie. La Renaissance Du Peuple Juif, (33), 2-3.
3. Inconnu, I. (1917). Les réfugiés israélite de Palestine en Egypte. l'Univers Israélite, (50), 615-616.
4. Inconnu, I. (1919). Le Sionisme devant la conférence de la paix. Recueil De Document Etranger, (46), 258-258.
5. LEVEN, N. (1920). Cinquante ans d'histoiren L'alliance Israélite universelle. Paris: Librairie Félix Alcan.
6. Felman, S. (1918). L'oeuvre du Fond National Juif en Palestine. La Renaissance Du Peuple Juif, (36), 13-13.
7. Inconnu, I. (1917). Lettre de l'organisation "HEHOLOUTZ" de New- York. La Renaissance Du Peuple Juif, 8-8.
8. I.N.S.E.E, D. (1948). Palestine, mémoire économique. Paris: Presse Universitaire de France.
9. Inconnu, I. (1918). La France en faveur du sionisme. Renaissance Du Peuple Juif, (36), 1-1.
10. Spire, A. (1918). Les Antitionistes et leurs objections. La Renaissance Du Peuple Juif, (35), 1-1.